ابن خلدون أديباً وناقداً

د. سام عمّار*

١ ـ مقدمة :

لابن خلدون كما سنرى اسهامات جديرة بالتقدير تناولت علوم اللسان المختلفة . وسيكون تركيزنا ـ هنا ـ على الأدب في مكونيه الشعر والنثر وصناعتهما ووجه الاجادة فيهما وبيان المطبوع والمصنوع ... وغير ذلك من الآراء النقدية . وابن خلدون ذاته نظم الشعر وشرحه (شرح البردة) وفصّل القول فيه .

وهذه الجوانب المتألقة أيضاً من إنتاجه لم تتناولها عموماً أقلام الكتّاب بالدراسة والتحليل . فقد كان التركيز منصباً على ميدان تخصصه الذي اشتهر به . وما عولج منها كان إجمالاً على سبيل الاستشهاد به .

وحسبنا في هذه الدراسة التي تتناول موضوعاً تراثياً أن نبرز بعض جوانب عطاء ابن خلدون في ميدان الأدب والنقد. فقد خصص جانباً هاماً من الجزء الرابع في مقدمته لهذا المجال (مئة صفحة ونيّف) .

وابن خلدون هو أبو زيد وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون ، ولد في تونس عام ١٣٣٢ م وتوفي في القاهرة عام ١٤٠٦ م . اشتغل

(*) كاتب وباحث من سورية . رئيس قسم المناهج وأصول التدريس في كلية التربية بجامعة دمشق .

بالسياسة والقضاء ، واختص بالتاريخ والاجتماع ، وكان ذا مكانة متميزة في عالم الأدب والبيان ، ورَسَخَت قدمُه في مختلف فروع المعرفة الأخرى ·

٢ ـ ابن خلدون وعلوم اللسان :

علوم اللسان عند ابن خلدون أربعة هي : النحو واللغة والبيان والأدب · وقد ابتدأ حديثه عن **النحو** بتعريف اللغة بأنها : « عبارة المتكلم عن مقصوده» وأن هذه « العبارة فعل لساني ، ناشئة عن القصد لافادة الكلام · فلا بد أن تصير ملكه متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان · وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم » (الجزء الرابع ، ص١٢٥٤) · والمهم في هذا التعريف أنه يجعل اللغة ملكة في اللسان عضوِها الفاعل · وعلى ذلك ينبني أن علم النحو أو صناعة العربية علم طارىء على اللغة العربية ، لم يشعر العرب بالحاجة إليه يوم كانت الملكة قوية · فلما جاء الاسلام وفارق العرب الحجاز لطلب المُلك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة وفسدت « بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع · وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد الملكة رأساً ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على الفهوم» · (ص ١٢٥٥) ·

لقد كان تأسيس علم النحو ـ الذي هو في نظر ابن خلدون أهمّ علوم اللسان العربي ، إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة ، ولولاه لجُهل القصد من الافادة ـ استجابة لمشاعر الخوف من ضعف الملكة وفسادها بسبب مخالطة العجم ، وهذا الضعف يستجر ضعفاً في فهم القرآن والحديث ، وهما عماد الدين الاسلامي · وقد بدأ استنباط قوانين هذه الملكة من كلام العرب على شكل كليات وقواعد ، يُقاس عليها سائر أنواع الكلام ، ويُلحق الشبيه منها بالشبيه · ولما تبدى أن الدلالة تتغير بتغير حركات الكلمات اصطلح على تسمية ذلك بالاعراب ، وسمي الموجب لذلك التغير عاملاً ، ودونت هذه القوانين واصطلح عليها بعلم النحو ·

وتحدث ابن خلدون عن نشأة هذا العلم على يد أبي الأسود الدؤلي باشارة من الامام علي رضي الله عنه (وهذه مسألة خلافية لن نناقشها هنا) ، ثم

استعرض بشيء من الايجاز تاريخ التأليف في علم النحو ، فذكر الفراهيدي وسيبويه والفارسي والزجاج ، وتحدث عن مدارس الكوفة والبصرة وبغداد والأندلس ، وأشار الى ابن مالك والزمخشري وابن الحاجب وابن مُعطى ، وتوقف عند ابن هشام ، وهو من المتأخرين ، وأثنى عليه ثناءً رائعاً (ص ص ١٢٥٦ ـ ١٢٥٨) .

وعرّف ابن خلدون **علم اللغة** بأنه «بيان الموضوعات اللغوية» (ص ١٢٥٨). فلما فسدت الملكة « تأدّى الفساد الى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلاً مع هُجْنَةِ المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب (أي الكتابة) والتدوين خشية الدروس (الضيّاع) وما ينشأ عنه من جهل بالقرآن والحديث ، فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين» (ص ١٢٥٨).

إن أسباب التدوين في اللغة هي نفسها أسباب نشأة علم النحو (فساد الملكة والخوف من الجهل بالقرآن والحديث) . وابن خلدون قدّم هنا أيضاً عرضاً شاملاً لحركة التأليف عند العرب بدءاً بالخليل بن أحمد الفراهيدي ومعجمه : **العين** ، وبنيته ونظريته . وأشار الى اختصار معجم العين على يد أبي بكر الزبيدي . وذكر **صحاح** الجوهري **والمحكم** لابن سيده الأندلسي ، وأشار إلى اختصار محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس ، لهذا المعجم وقلب ترتيبه إلى أوائل الأصول مثل الصحاح . ولم ينسَ **كتاب الجمهرة** لابن دريد ، وكتاب **الزاهر** لابن الأنباري . وخلص بعد ذلك إلى أن « هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه» (ص ١٢٦٠) .

وأشار بعد ذلك إلى كتاب **أساس البلاغة** للزمخشري الذي دوّن فيه صاحبه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ ، وما تجوزت به من المدلولات . وقد أخرجه ابن خلدون من المجموعة الأولى ، لأنه يذكر إلى جانب المعاني الحقيقية للألفاظ (موضوع المجموعة الأولى) معانيها المجازية . وهو بذلك يختلف عنها في الموضوع .

وذكر ابن خلدون المؤلفين في مجال فقه اللغة الذي يقوم ـ في رأيه ـ على

الفرق بين الوضع والاستعمال • فالعرب كانت تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى• من ذلك وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض ، ثم اختصاص « مافيه بياض من الخيل بالأشهب ، ومن الانسان بالأزهر ، ومن الغنم بالأملح ، حتى صار الأبيض في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب » (ص١٢٦١) • وبيَّن أن من اختص بالتأليف في هذا المنحى هو الثعالبيّ في كتابه : **فقه اللغة** • أما الحاجة إلى هذا النوع من المعرفة فتخص الأديب « حذراً من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها • وهو أشد من اللحن في الاعراب وأفحش » (ص١٢٦١) • فمعرفة الوضع الأول ليست كافية في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك •

ولم ينسَ ابن خلدون جهود بعض المتأخرين في التأليف في **الألفاظ المشتركة**، وإن لم يذكر أعمالهم : أما المختصرات في هذا الفن فذكر منها كتاب **الألفاظ** لابن السكيت وكتاب **الفصيح** لثعلب •

وفي الحديث عن **علم البيان** يرى ابن خلدون أن « هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية (النحو) واللغة » • فهو « متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني » (ص١٢٦٣) • ثم يشرح ذلك بقوله : إن « الأمور التي يقصد بها المتكلم إفادة السامع مع كلامه هي : إما تصور مفردات تُسند ويُسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض ، والدالّة على هذه (الافادة) هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف ؛ وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ، ويُدل عليها بتغير الحركات » ، إنْ في أواخر الكلمات (الاعراب) أو في أبنيتها (الصرف) ؛ « وهذه كلها هي صناعة النحو » (ص١٢٦٣) •

ويكمل ابن خلدون فكرته بما يلي: « ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل • وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الافادة ، وإذا حَصَلَتْ للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في كلامه ، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب ، فان كلامهم واسع ، ولكل مقام عندهم مقال يختص به ، بعد كمال الاعراب والابانة » (ص١٢٦٣) •

ثم يعرض بعد ذلك مجموعة من الأمثلة عن التقديم والتأخير، والتعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مُبْهَم أو معرفة، وتأكيد الاسناد على الجملة، والخبر والانشاء، والتشبيه والاستعارة والكناية، ويخلص إلى أن في ذلك كله «دلالة» زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب» (وهذه الأخيرة خاصة بعلم النحو)، وهذه الدلالة الزائدة هي« هيآت وأحوال لواقعات جُعلت للدلالة عليها أحوال" وهيآت في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه» (ص١٢٦٤) • وهذا هو جوهر علم البيان الذي اشتمل على البحث عن الدلالات التي للهيآت وجُعِل في ثلاثة أصناف، يُبحث في أولها عن هذه الهيآت والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى **علم البلاغة** (وقد اشتهر فيما بعد بعلم المعاني)، ويُبحث في الثاني منها عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه (التشبيه والاستعارة والكناية) ويسمى **علم البيان** • أما الثالث فيتناول تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، وهو علم **البديع** •

واستعرض ابن خلدون مراحل نمو هذا الفن، فأشار إلى جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة بن جعفر، وذكر أن اكتمال هذا الفن كان على يد السكاكي الذي «محض زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه (...) وألّف كتابه المسمى **بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان**، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه، وأخذه المتأخرون من كتابه» (ص١٢٦٥)، وهو يقصد بهؤلاء المتأخرين ابن مالك في كتاب **المصباح**، والقزويني في كتابيه **الايضاح والتلخيص** •

ولعل من المفيد أن نشير إلى أن ابن خلدون (وتلك ملاحظة محقق المقدمة: على عبد الواحد وافي) قد أغفل مرحلة هامة من مراحل تكوّن هذا العلم هي مرحلة الجرجاني • فقد كان لكتابيه :**دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة**، فضل كبير في نشأة هذا العلم، وبنائه على أسس قويمه •

لقد بيّن ابن خلدون أن أهل المشرق أقوم على هذا الفن من المغاربة • وعلل ذلك بقوله : «وسببه ـ والله أعلم ـ أنه كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في العمران، والمشرق أوفر عمراناً من المغرب» • (ص١٢٦٥) •

وهذه المقولة : العلم يزدهر حيث يزدهر العمران البشري ، ويخبو حيث يخبو ، تبدو عند ابن خلدون نظرية يُفسِّر بها ارتقاء العلوم أو انحطاطها في غير مكان من مقدمته . إنها قانون اكتشفه ابن خلدون قبل ظهور علم الاجتماع الأوروبي بحوالي خمسة قرون . وفي ذلك شاهد على عبقريته وأصالته ورسوخ قدمه .

ويذكر ابن خلدون أن أهل المغرب اختصوا بالبديع لولوعهم بتزيين الألفاظ ، ولسهولة مأخذه . أمّا البلاغة والبيان فصعبت عليهم مآخذهما ؛ لدقة أنظارهما وغموض معانيهما . ومن ألّف في البديع من أهل إفريقية هو ابن رشيق وكتابه في ذلك هو **العمدة** ، الذي كان نموذجاً جرى كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاه (١٢٦٦) .

وخلص ابن خلدون إلى أن « ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الاعجاز من القرآن ، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام ، مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها ، وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه » (١٢٦٦) . وابن خلدون يستثني من هذه القاعدة المطلقة : (قصور الأفهام عن إدراك الاعجاز) من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه . وبهذا يُفسر تفوق العرب من أهل المشرق في فهمه ، وقد سمعوه من مُبلِّغه ؛ لأنهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحّه . »

أما أصحاب الحاجة إلى هذا الفن فهم - في نظر ابن خلدون - مفسرو القرآن . ولكن تفاسيرهم كانت غُفلاً عنه حتى جاء الزمخشري بكتابه **:الكشاف،** فانفرد بهذا الفضل عن جميع التفاسير(١٢٦٦) .

ولدى حديث ابن خلدون عن **علم الأدب** وهو رابع علوم اللسان في نظره، يشير إلى أن«هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود عند أهل اللسان ثمرته ،وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة ، وسجع متساوٍ في الاجادة ، ومسائل من اللغة

والنحو مبثوثة في أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية ، في ذكر بعض أيام العرب (٠٠٠) وذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة». (ص١٢٦٧). هذا هو معنى الأدب المؤدي إلى ملكة اللغة العربية ، لدى ابن خلدون ، وهو ينم عن رهافة في الحس وسلامة في الذوق ووعي لمقتضيات تكوّن هذه الملكة ٠

أما حد هذا الفن فهو « حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف » ، أي «من علوم اللسان والعلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهي القرآن والحديث ، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب ، إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كَلَفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية ٠ فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها ((ص ١٢٦٧) ٠

وأما أصول هذا الفن وأركانه فقد بيَّن ابن خلدون أنها أربعة دواوين ، وهي كتاب أدب **الكاتب** لابن قتيبة، وكتاب **الكامل** للمبرد وكتاب **البيان والتبيين للجاحظ** ، وكتاب **النوادر** لأبي علي القالي ٠ وما سوى ذلك فتبع لها وفروع عنها (ص١٢٦٨) ٠

ولم ينسَ ابن خلدون كتاب **الأغاني** لأبي الفرج الأصبهاني ٠ ولكنه يمتاز عن الكتب السابقة بأنه بُني على الغناء في مئة الصوت التي اختارها المغنون للرشيد ، ولذلك جعله مستقلاً ٠ وقرّظه تقريظاً رائعاً بقوله : « ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون التاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها ؛ وأنَّى له ذلك ؟ » (١٢٦٨) ٠

٣ ــ نظرات ابن خلدون النقدية :

لابن خلدون في الجزء الرابع من مقدمته جملة من الآراء النقدية الجديرة بالتقدير ، ولا سيما إن صدرت عن عالم بالاجتماع والتاريخ لا عن عالم متخصص باللغة والأدب ، وهي مبثوثة في ذلك الجزء على متون الصفحات (١٢٨٥ــ١٣٥٥).

١/٣ انقسام الكلام الى شعر ونثر:

يقرر ابن خلدون « أن لسان العرب وكلامهم على فنين : في الشعر المنظوم ، وهو الكلام الموزون المقفى ، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية ؛ وفي النثر ، وهو الكلام غير الموزون · وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام · فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء ·وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً ،ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة تسمى سجعاً ، ومنه المرسل الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ·ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم » (ص ١٢٨٥ ــ ١٢٨٦) ·

بهذه الأسطر القليلة المثقلة بالدلالة يميز ابن خلدون بين فني الكلام :الشعر والنثر ، ويقدم لكل منهما تعريفاً متماسكاً ، ويذكر أبرز أغراضه ·

ولكن أين موقع القرآن من هذين الفنين ؟ إنه ليس بشعر بالتأكيد،ولكنه، وإن كان من المنثور ، لا ينتمي إلى أي من نوعي النثر : السجع والترسل · إنه كما يوضح ابن خلدون « خارج عن الوصفين ، وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً · بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها · ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها،ويثنّى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية » · ويستشهد على ذلك بالآية الثالثة والعشرين من سورة **الزمر** وهي : « والله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مَثَانِيَ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » ، وكذلك بالآية السادسة والعشرين من سورة **الأنعام** ، وهي « وهذا صراط ربك مستقيماً ، قد فصّلنا الآيات لقوم يذّكرون » · أما آخر الآيات منها فيسمى فواصل ·وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم للأسباب السابقة ،واختصت (أي المثاني) بأم القرآن (الفاتحة) (ص ١٢٨٦) ·

وأشار ابن خلدون بشيء من الأسف إلى استعمال المتأخرين « أساليب الشعر وموازينه في المنثور ، من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب

بين يدي الأغراض ، وصار هذا المنثور،إذا تأملته ، من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا في الوزن» (ص١٢٨٦) • كما بين أن هذا الأسلوب استعمل في المخاطبات السلطانية على يد المتأخرين الذين« قصروا الاستعمال في هذا المنثور على هذا الفن الذي ارتضوه ، وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق • » ولذلك نعت هؤلاء الكتاب بالغُفل ، لأن أسلوبهم هذا « غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، من أحوال المخاطِب والمخاطَب» • (ص ١٢٨٧) • وقد دعا ابن خلدون إلى «الترسّل ، وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الأقل النادر ، وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلّف ، ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال » • (ص ١٢٨٧) •

وقد التزم ابن خلدون في أسلوبه بدعوته ، وخرج عن قيود السجع والتزويق في عصر كانت الكتابة العربية تغرق فيهما • ونحن مدينون لهذا النهج في الكتابة المترسلة الخلدونية ، الذي كان ـ كما يقول علي عبدالواحد وافي محقق المقدمة ـ « ذا أثر كبير في لغة الكتابة في مختلف أنحاء العالم العربي في العصر الحديث • »(الجزء الأول ، ص ٩٧) •

٣/٢ ـ لا تتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل :

في البرهنة على هذه الفرضية لا بد من العودة الى نظرية ابن خلدون التي مفادها « أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة ، اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني ، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها • » (ص ١٢٦٨) • وهذا يعني أن الملكات تُكتَسب بالتدرب والمران ، وعلى ذلك تكون جودتها وقصورها مرتبطين بتمام الملكة أو نقصانها ، أي بمقدار التدرب عليها الذي يبلغ حد الاتقان أحياناً ، ولا يبلغه أحياناً أخرى •

وهذه النظرية تتضافر مع نظرية أخرى له تقول : « إن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى » • ويفسّر ابن خلدون ذلك بأن « الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة • ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها • فاذا تلونت

النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة ، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف » . ويخلص الى أنه « قلّ أن تجد صاحب صناعة يُحْكِمُها ثم يُحْكِم من بعدها أخرى ويكون فيهما معاً على رتبة واحدة »(الجزء الثالث ، ص ص ٩٣٠ـ٩٣١) .

ويقدم ابن خلدون أمثلة لذلك كعادته دائماً فيقول : « وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً . فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي ، ويظل قاصراً فيه ولو تعلّمه وعَلِمَه » (ص ١٢٨٨) .

وينبني على ما تقدم كله أنه ان كان فن المنظوم صناعة وفن المنثور صناعة أخرى فان الملكة في فن المنظوم حين تكون متقدمة على الملكة الثانية في فن المنثور، تكون الثانية أدنى مستوى أو جودة من الأولى ؛ لأن الملكة الأولى تكون على الفطرة ، ولذلك يكون امتلاكها أسهل وأيسر وأجود ، على خلاف الثانية .

ولكن ابن خلدون العالِم المتواضع يتحفظ على التعميم المطلق لهذه النظرية، فيستعمل عبارة « الا في الأقل » ليشير الى حالات قد تخرج عن هذا التعميم ، ولكنها استثنائية ولا يقاس عليها .

٣/٣ ـ صناعة الشعر ووجه تعلمه :

يبدأ ابن خلدون حديثه هنا بتعميم يبين فيه أن فن الشعر موجود في سائر اللغات ، ولكن لكل لسان أحكاماً في البلاغة تخصه . وبعد أن يحصر الحديث في الشعر العربي ، يذكر قواعده ، فهو « في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى ؛ إذ هو كلام مفصَّل قطعاً متساوية في الوزن ، متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة . وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ؛ ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه روياً وقافية ؛ وتسمى جملة الكلام الى آخره قصيدة وكلمة . وينفرد كل بيت منه بافادته في تراكيبه ، حتى كأنه كلام مستقل عما قبله وما بعده. وإذا أفرِدَ كان تاماً في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء ... » (ص ١٢٨٩) . ويستمر بعد ذلك في الحديث عن أغراض

القصيدة ، والانتقال وفق منهج عمودهامن مرحلة الى أخرى ؛ وعن ضرورة اتقان علم العروض .

ويبين ابن خلدون « أن فن الشعركان شريفاً عند العرب ... وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها » ، ولكنه « لصعوبة منحاه وغرابة فنه كان مِحَكّاً للقرائح في استجادة أساليبه وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه . ولا يكفي فيه ملكة الكلام العربي على الاطلاق ، بل يُحتاج بخصوصه الى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها » (ص ١٢٩٠) .

ويتحدث عن صناعة الشعر فيرى أنها « المنوال الذي تُنسج فيه التراكيب أو القالب الذي تفرغ فيه » ، وفي ذلك «يُرجَع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيِّرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعله البنّاء في القالب أوالنساج في المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه . فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة» (ص١٢٩٠ ـ ١٢٩١) . ويعرض بعد ذلك مثالاً عن سؤال الطّلُول وتنوع أساليب التعبير فيه لدى جمهرة من عمالقة الشعر العربي .

ويقرر ابن خلدون أن معرفة قوانين البلاغة ـ وهي قواعد علمية قياسية ـ ليست من صناعة الشعر في شيء ؛ لأن أساليب هذه الصناعة « إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها ، فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر » (ص ١٢٩٣) .

أما كيفية تحصيل هذه القوالب في الذهن فتكون بحفظ أشعار العرب وكلامهم . وهي موجودة في المنظوم والمنثور . والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني عليه مؤلف الكلام تأليفه .

وبعد أن يقرر معنى الأسلوب في صناعة الشعر يبين حده ، أي تعريفه ، ويقرر أنه لم يقف على حد أو رسم للشعر يُفهم حقيقته لدى أحد من المتقدمين فيما رأي . إنه لا يقبل تعريف العروضيّين للشعر بأنه «الكلام الموزون المقفى» : لأن صناعتهم تنظر في الشعر بما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب .

إن ابن خلدون يريد حداً تاماً ورسماً تاماً للشعر يعتمد تعريف الشيء بالجنس والفصل القريبين على طريقة المَناطِقة (راجع تعليق المحقق على ذلك في ص ١٢٩٥) . فما ذُكر عن حد الشعر لدى المتقدمين يظل ناقصاً كما قدمنا . أما التعريف الذي يعطي حقيقة الشعر من هذه الحيثية فهو التالي : «الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به» . (ص ١٢٩٥) . ثم يتناول التعريف بالتوضيح والتفسير ليبين الفرق بينه وبين ما قدمه المتقدمون فيقول : «فقولنا : الكلام البليغ **جنس** . وقولنا: المبني على الاستعارة والأوصاف **فصل** عما يخلو من هذه ، فانه في الغالب ليس بشعر . وقولنا : المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي **فصل** له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل . وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان **للحقيقة** ، لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك ، ولم يُفصل به شيء . وقولنا الجاري على الأساليب المخصوصة به **فصل** له عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة ، فانه حينئذ لا يكون شعراً وإنما هو كلام منظوم ، لأن الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور . وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر ...» (ص ١٢٩٥) . بهذه الشفافية والدقة والوضوح والشمول يُعرّف ابن خلدون الشعر ، ويبين حده ، فيفصله فصلاً تاماً عن النثر ، والكلام المنظوم الذي ليس من الشعر في شيء .

أما وقد انتهى الكلام على حقيقة الشعر فكيف يكون عمله ؟ في الجواب عن هذا السؤال يبين ابن خلدون شروط عمل الشعر وإحكام صناعته ، وهي : (ص ص ١٢٩٦ ـ ١٢٩٨) :

١ً- **الحفظ من** جنسه أي من **جنس** شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة يُنسج على منوالها ، ويُتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب . وأقل ما يكفي في هذا المحفوظ المختار من شعر الفحول من الشعراء الاسلاميين (بما في ذلك الحقبة العباسية بالطبع) . **أما** أكثره فشعر كتاب **الأغاني** ، **لأنه** جمع شعر الطبقة الاسلامية والمختار من الشعر الجاهلي .

٢ً- بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال ، يُقبل على **النظم** ، وبالاكثار منه تستحكم ملكته وترسخ . وربما كان شرط النظم بعد الحفظ **نسيان** ذلك المحفوظ لتُمحى رسومه الحرفية الظاهرة ، فتتكيف النفس بها ، وينتقش الأسلوب فيها .

٣ً- ولا بد من **الخلوة واستجادة** المكان المنظور فيه من المياه والأزهار ، وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور . وهذا شرط المكان ، أما شرط الزمان فهو الصباح الباكر ، حيث الراحة والتشاط ذهناً وفكراً . وهذا ينطوي إذاً على حالة نفسية أو شرط نفسي . وأضاف ابن خلدون إلى ذلك العشق والانتشاء اللذين ذكرهما ابن رشيق في **العمدة** . « وهو الكتاب الذي اختص بهذه الصناعة واعطاء حقها ، ولم يكتب أحد قبله ولا بعده مثله » . (ص ١٢٩٧) . ولكن ابن قتيبة سبقهما عندما تحدث في القرن الثالث الهجري في كتابه: الشعر والشعراء، عن بواعث الشعر وتاراته وزمانه ومكانه ، وعرض **أمثلة لذلك** .

٤ً- أما النقطة الرابعة فتضم عدداً من المسائل الفرعية الخاصة بانتاج الشعر ذاته، من مثل ترك محاولة الشعر إن بدت صعبة بعد كل ما سبق ، وبناء البيت على القافية من أول صوغه ، وترك البيت إلى موضعه الأليق به في القصيد إن لم يكن مناسباً ما تقدّمه ، وتخير المناسبة ، ومراجعة الشعر وتنقيحه ونقده بعد إنتاجه ، وترك ما ليس بجيد منه ، واستعمال الأفصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية ، واجتناب المعقد من التراكيب ، والمعاني الكثيرة في البيت الواحد ، والحوشي من الألفاظ والمقعر وكذلك السوقي المبتذل . ولا ينسى أن يعرض عدداً من الأمثلة على ما قدمه هنا .

ويخلص بعد كل ما تقدم إلى أنه : « إذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه (الشاعر) ويعاوده فان القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف بالترك والاهمال » (ص١٢٩٨) ٠

ولا ينسى ابن خلدون في ختام هذا العرض الجميل الذي يشهد على إلمامه الواسع والدقيق بمسائل فن الشعر وصنعته أن يذكر بعضاً مما نظمه الناس في أمر هذه الصنعة وما يجب فيها (ص ١٢٩٩ـ١٣٠٢) ٠

٤/٣ ـ صناعة النظم والنثر هي في الألفاظ لا في المعاني :

يبين ابن خلدون أن ما في اللسان والنطق هو الألفاظ ، أما المعاني فهي في الضمائر ٠ وهي أيضاً موجودة لدى كل واحد في الفكر ، ولذلك فهي ليست بحاجة إلى صناعة ٠ إن ما يحتاج إلى الصناعة هو تأليف الكلام للتعبير عنها ، وهو في موضع القوالب للمعاني ٠ ويقدم لذلك مثالاً حسياً وهو أن الآنية التي نغترف بها الماء من البحر متعددة الأنواع ، منها الذهب والفضة والخزف والزجاج والصدف ، ولكن الماء واحد ، واختلاف الجودة في الأواني المملوءة بالماء ناجم عن جنسها لا عن الماء ٠ وذلك ينطبق على اللغة ، فجودتها وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعاني واحدة في نفسها (ص ١٣٠٢ ـ ١٣٠٣) ٠

٥/٣ ـ بيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيفية جودة المصنوع أو قصوره :

يرى ابن خلدون أن سر الكلام وروحه في إفادة المعنى ، وأن كمال الافادة هو البلاغة ، لأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال ٠ ويتبع الافادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال الذهن بين المعاني بأصناف الدلالات ، لأن التركيب يدل بالوضع على معنى ، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه ، فيكون فيها مجازاً إما استعارة أو كناية (راجع في الفقرة ٢) ، والصناعة الخاصة بهذا الانتقال هي البيان ٠ وعلم البيان شقيق علم المعاني ، وهما جزءا البلاغة ، وبهما كمال الافادة والمطابقة لمقتضى الحال ٠ والبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته ٠

ثم يوضح المقصود من المطبوع . فهو « الكلام الذي كَمُلت طبيعته وسجيته ، من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط ، بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة » . (ص ١٣٠٨) .

أما الكلام المصنوع فهو الذي يحصل له « رونق ولذة في الأسماع وحلاوة وجمال كلها زائدة على الافادة » . إنها «ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الافادة ؛ وكأنها تعطيها رونق الفصاحة، من تنميق الأسجاع ، والموازنة بين جمل الكلام ، وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام ، والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه ، والمطابقة بين المتضادات ، ليقع التجانس بين الألفاظ والمعاني » . (ص ١٣٠٨) .

ويرى ابن خلدون أن هذه الصنعة موجودة في القرآن في مواضع متعددة ، ويقدم لذلك أمثلة كثيرة منها الآيتان الأولى والثانية من سورة الليل : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى » . ولكن هذا يسمى في القرآن فواصل (راجع الفقرة ٣/١) وذكر أن الصنعة أتت عند الجاهليين عفواً من غير قصد، وكذلك الأمر لدى الاسلاميين . ثم يذكر من أبدعوا فيها كأبي تمام ومسلم بن الوليد ثم ابن المعتز الذي « ختم على البديع والصناعة أجمع » . (ص ١٣٠٩) .

وأشار ابن خلدون إلى شروط جودة المصنوع أو قصوره ؛ فمن شروط الجودة فيه أن يأتي من غير تكلف ولا اكتراث فيما يقصد منه ، وأن يقلل منه ، وأن يكون في بيتين أو ثلاثة من القصيد ، فتكفي في زينة الشعر ورونقه . أما الاكثار منه فعيب وقصور ، لأن الصنعة كالخِيلان (جمع خال وهو الشامة) في الوجه يحسن بالواحد والاثنين ويقبح بتعدادها ، ولأن تكلف الصنعة ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام فتخيل بالافادة من أصلها وتذهب بالبلاغة رأساً ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات . ويعقب على ذلك بقوله : « وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر» . وقد سبق أن تناولنا هذه المسألة لدى الكلام على علم البيان (راجع الفقرة ٢) .

٦/٣ ـ جودة الشعر بجودة المحفوظ منه :

رأينا في الفقرة (٣/٣) أن الشرط الأول من شروط عمل الشعر وإحكام صناعته هو الحفظ من جنسه ، أي من جنس شعر العرب ، حتى تنشأ في النفس ملكة يُنسج على منوالها . وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته وكثرته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . فبارتقاء المحفوظ في طبقته ترتقي الملكة الحاصلة . وعلى حسب ما نشأت عليه الملكة من جودة أو رداءة تكون الملكة في نفسها . وعلى أساس ذلك يميز ابن خلدون بين شعر الشعراء الذين تكونت لديهم ملكة عالية في البلاغة بحفظهم العالي في طبقته من كلام العرب ، وشعر الفقهاء وأهل العلوم كلهم القاصرين في البلاغة ، بسبب ما يسبق إلى محفوظهم ، ويمتلىء به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة .

وروى ابن خلدون مثالاً على ذلك ما أخبره به صاحبه أبو القاسم بن رضوان الكاتب بالدولة المرينية ، الذي ذاكر صديقاً له متبصراً باللسان ، فأنشده مطلع قصيدة ابن النحوي ، ولم ينسبها له ، وهو :

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال له الصديق على البديهة : هذا شعر فقيه . فقال أبو القاسم : ومن أين لك ذلك ؟ فقال الصديق : من قوله : «ما الفرق؟» إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب .

ويقدم ابن خلدون نفسَه مثالاً على ذلك . فقد ذاكر صاحبه أبا عبدالله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس ، فشكا له ما يعانيه من استصعاب في نظم الشعر متى رامه ، مع بصره به وحفظه للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظه قليلاً . ثم علل ذلك بقوله : « وإنما أتت والله أعلم من قبل ما حصل من حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية . فاني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات ، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول ، وجمل الخونجي في المنطق ،

وبعض كتاب التسهيل (لابن مالك) ،وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس ، فامتلأ محفوظي من ذلك ، **وخدش** وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، **فعاق** القريحة عن بلوغها . فنظر إليه ابن الخطيب ساعة معجباً ثم قال : لله أنت ! وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ (ص ١٣٠٥) .

ولا يسعنا إزاء هذه الصراحة المدهشة لابن خلدون ، وهذا التواضع الذي يتصف به العالم الحق ، إلا أن نعجب به ، نحن أيضاً ، عالماً وأديباً وناقداً وشاعراً وكاتباً ديوانياً ، إلى جانب كونه أصلاً عالم اجتماع ومؤرخاً .

٤ ـ ابن خلدون والشعر :

لقد حاول ابن خلدون التجربة الشعرية إذاً ووجد استعصاباً في نظمه كما رأينا ، ولكنه نظمه ، وله عدة قصائد منه ، بلغت إحداها نحو مئة بيت . ولكنه لم يكن مهيأ له كل التهيئة ، ولم يوهب استعداداً كبيراً له . ولذلك جاء شعره في طبقة غير راقية . وأحس هو بذلك فوصف شعره بأنه « يتوسط بين الاجادة والقصور . » (الجزء الأول ،ص ٩٨) . وقد ذكر محقق المقدمة : علي عبد الواحد وافي ، نماذج من شعره كان ابن خلدون ـ كما يقول ـ أثبتها في كتابه : **التعريف** . وهذه النماذج تمتد على الصفحات من ٩٨ ـ ١٠٢ ، من الجزء الأول من المقدمة .

وشرح ابن خلدون الشعر ، فقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب في ترجمته لابن خلدون أنه شرح **البردة** ، القصيدة المشهورة في مدح الرسول (الجزء الأول، ص ١٠٣) .

وقد خصص ابن خلدون في الجزء الرابع من المقدمة فصلاً تحدث فيه عن أشعار العرب من معاصريه (كان ابن خلدون يطلق هذه الكلمة على البداة في مقابل الحضر ، وهؤلاء هم الأكثر حفاظاً على اللسان العربي لقلة اتصالهم بالعجم) ، وأشعار أهل الأمصار لعهده، وصنف نماذج من ذلك في حدود أربعين صفحة (١٣١٤ ـ ١٣٥٤) .

لقد بين ابن خلدون أن الشعر موجود في كل لغة ، سواء أكانت عربية أم أعجمية . وبين أنه « لما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين إعرابها فسدت اللغات من بعد بحسبما خالطها ومازجها من العجمة ، فكانت لجيل العرب (البدو) بأنفسهم لغة سلفهم من حضر في الاعراب جملة ، وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات . وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الاعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف ، وخالفت أيضاً لغة الجيل (جيله) من العرب (البدو) لهذا العهد (عهده) ، واختلفت هي نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره ، وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره» (ص ١٣١٥) . وقد ناقشنا هذه المسألة مطولاً في مقال كتبناه عن ابن خلدون اللغوي في مجلة الموقف الأدبي ،العدد المزدوج شباط آذار ١٩٩٥ . ولسنا بصدد ذلك الآن . وإنما أوردنا قول ابن خلدون هذا لأنه القاعدة التي يستند إليها في الحديث عن أشعار العرب وأهل الأمصار لعهده . إن ابن خلدون يشير في هذا النص إلى اللسان **المضري** الذي نزل به القرآن ، فدُونت مقاييسه وقوانين إعرابه للحفاظ عليه . إنه اللسان العربي المبين الفصيح : لسان الكتابة والتدوين . وقد تطور عنه في الأمصار على اختلافها لغات شفوية تختلف عنه ، ويختلف بعضها عن بعض كما رأينا . وهذه اللغات هي **العاميات** على اختلافها وبها نسج العامة أشعارهم، كما استمر أهل اللسان المضري الفصيح في نسج أشعارهم به . وهذا الشعر الأصيل لم يتناوله ابن خلدون هنا. وإنما تناول المستحدث ، فقال : « فأما العرب (البدو) أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ماكان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات (...) فأهل أمصار المغرب يسمون هذه القصائد **بالأصمعيات**، نسبة إلى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم . وأهل المشرق يسمون هذا النوع من الشعر **بالبدوي** وربما يلحّنون فيه ألحاناً بسيطة ، لا على طريقة الصناعة الموسيقية . ثم يُغنون به . ويسمون الغناء به باسم **الحوراني** نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام ،وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد . » (ص١٣١٦) .

ويذكر ابن خلدون أن لهم (أي العرب **البداة**) فناً « آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويّه ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمربع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولّدين . ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون . » ولكن ابن خلدون يشير إلى أن كثيراً من منتحلي العلم في عهده ، ولا سيما علم اللسان يستنكرون فنونهم هذه إذا سمعوها ، ويمجّون نظمهم إذا أنشد ، ويعتقدون أن ذوقهم إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب منها (ص١٣١٦) . ويعلل ابن خلدون سبب هذا الاستهجان بأنه ناجم عن فقدان الملكة في لغة هؤلاء العرب . ويدافع عن الفكرة بأن الاعراب « لا مدخل له في البلاغة ؛ إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال ، سواء أكان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس ؛ وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه . فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة . فاذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة ؛ وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك . وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب في أواخر الكلم ، فانّ غالب كلماتهم موقوفة الآخر ، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب » . (ص ١٣١٦ ــ ١٣١٧) . ثم يعرض ابن خلدون نماذج من ذلك الشعر ، ويدخل في هذا النوع جميع أشعار القبائل العربية التي هاجرت إلى شمال إفريقية ، وتعرف سيرتها **بسيرة بني هلال** .

ثم تحدث عن **الموشحات** بالأندلس وقواعدها وأصولها وسماتها ، وأرخ لها ، فذكر أن المخترع لها بجزيرة الأندلس كان « مقدم بن معافر الفريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني . وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد ابن عبد ربه صاحب كتاب **(العقد الفريد)** . » (ص ١٣٢٨) . وتحدث عن موضوعاتها وجهابذتها على اختلاف عهود العرب في الأندلس .

ولا ينسى ابن خلدون أن يشير إلى أن التوشيح انتقل إلى المشارقة . ولكن « التكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات » . واعتبر ابن خلدون أن موشحة ابن سناء الملك المصري هي من أحسن ما وقع لهم ، فقد اشتهرت شرقاً وغرباً .

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن **الزجل** ، الذي اعتبره امتداداً للموشح، نَسَجَه « العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً (...) فجاؤوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة (ص ١٣٤٠) . وقد أرّخ ابن خلدون لهذا الفن، فذكر أن « أول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان ، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس ، ولكن لم يظهر حلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه » . (ص ١٣٤٠) . كما ذكر نماذج لأشهر من تعاطوا هذا الفن في عهود الأندلس كلها .

وتناول ابن خلدون فناً آخر استحدثه أهل الأمصار بالمغرب يقع «في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسموه **عروض البلد** . » (ص ١٣٤٧) . وقد أرخ له ابن خلدون، فذكر أن « أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عُمير ، فنظم قطعة على طريقة الموشح، ولم يخرج فيها عن الأعراب » كما ذكر من أنواعه : **المزدوج والكاري والملعبة والغزل** (ص ١٣٤٧) .

ثم انتقل إلى الحديث عن المستحدثات في هذا الميدان في المشرق ، فذكر أن « لعامة بغداد أيضاً فناً من الشعر يسمونه « **المَواليا** » وتحته فنون كثيرة يسمون منها «**القوما**» و «**كان وكان**» ومنه مفرد ، ومنه في بيتين ، ويسمونه « **دوبيت** » على الاختلافات المعتبرة عندهم في كل واحد منها ، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان . وتبعهم في ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاؤوا بالعجائب » (ص ١٣٥٢) . وذكر نماذج من ذلك .

وهكذا يبدو لنا ابن خلدون ملماً بفنون الشعر قديمه ومستحدثه ، متذوقاً إياه ، مؤرخاً له ، عالماً بقواعده وأصوله ، مستوعباً بلاغته ، راوية له وناظماً بمقدار .

٥ ـ خاتمة :

هذا الذي قدمناه في الصفحات السابقة يلقي الضوء على جانب من جوانب علم ابن خلدون الموسوعي . لقد كتب في علوم اللسان وأرّخ لها ، وكانت له فيها آراء جديرة بالتقدير . وثقافته الأدبية والدينية الواسعة وسمت بشدة نظراته الأدبية والنقدية التي أوردناها ، وهي جميعاً تنم عن حس لغوي سليم ومرهف ، وتبصر في مسائل اللسان العربي وعلومه ، وجرأة في التعبير عن الرأي ، وتواضع نادر المثال ، وحذر في الطرح . ويتوج ذلك كله عبقرية مدهشة ، وأسلوب واضح سهل ، وتعبير دقيق عن الحقائق ، وقوة في التدليل ، وترابط في الفكرة ، ومنطق محكم في البرهان ، وتَرَسُّل في الكتابة منافٍ لما ساد في عصره من صنعة وتزويق ، وأداء حسن متناسق .

وابن خلدون فيما سبق كله لم يدّعِ صنعة النقد ولا صنعة الأدب ، بل أراد أن يقدم لنا ما بين يديه ، لأن حَجْبَ العلم عن الراغبين فيه ليس من صفات العالم . وهذا النمط من أهل العلم مثال يحتذى ، وأسوة حسنة .

□ المصادر :

١ ـ ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، الجزء الأول ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٧ ، الطبعة الأولى .

٢ ـ ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثالث ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٠ ، الطبعة الأولى .

٣ ـ ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، الجزء الرابع ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٢ ، الطبعة الأولى .

(★) والأجزاء الثلاثة هذه مع الجزء الثاني الذي يتممها وصدر عن لجنة البيان العربي بالقاهرة عام ١٩٥٨ ، من تحقيق علي عبدالواحد وافي .

